بطريركية أنطاكية في القرون الثلاثة الأولى: منهل للإيمان وملتقى للإنسان

أنطاكية القديمة ونشأة المسيحية

تأسست أنطاكية عاصمةً للهيلّينة في الشرق الأوسط على يد الملك سلوقس الأول نيكاتور في العام ٣٠٠ ق.م.، وهو الذي أطلق عليها اسمها تكريمًا لابنه أنطيوخوس. عندما وصلت المسيحية إلى أنطاكية في الأربعينيات من القرن الأول الميلاديّ كانت الإمبراطورية الرومانية قد أحكمت سيطرتها على هذه المدينة وكل ما يحيط بها منذ ما يقارب المئة سنة. جعل هذا الأمر من أنطاكية مدينة هلينستية نموذجية، وأهّلها لكي تكون عاصمة لمقاطعة سوريا الرومانية ومركزًا لحاكمها. كانت أنطاكية تُعَدّ، مع روما والإسكندرية، من بين المدن الثلاث الأهمّ في الإمبراطورية. وكانت تغطّي مساحة كبيرة تمتدّ من شواطئ البحر الأبيض المتوسط في آسيا الصغرى إلى حدود بلاد ما بين النهرين، ومن البنطس إلى العربية. وكانت الشعوب المتعددة والمختلفة التي كانت تسكن في تلك الأنحاء تلتقي في أنطاكية من أجل التجارة، والعلم، والسياسة. وقد سهّلت اللغة اليونانية والثقافة الهلينستية هذا اللقاء وسمحت بتبادل المعارف والآراء. غير أنّ اليونانية لم تكن اللغة الوحيدة المتداولة في المدينة.فقد كان للّغة الآرامية حضور ملحوظ في أنطاكية وفي كلّ المقاطعة السورية ومحيطها. كانت الآرامية اللغة المحليّة الأهمّ، وكانت تمثّل الثقافة المحلّية والتقليدية، وذلك خلافًا لليونانية، التي كانت لغة ***الحداثة والتجديد***، على حدّ تعبيرنا اليوم. إلى جانب الجماعات التي كانت تتكلّم اليونانية والآرامية، عرفت أنطاكية، المدينة ذات الطابع العالمي، أقليات عربية وفارسية وأرمنية.

كان عدد السكان العبيد والأحرار القاطنين في أنطاكية، في حوالي القرن الأوّل الميلاديّ، يتراوح، بحسب التقديرات، بين ثلاثمائة وستمائة ألف نسمة، من بينهم جماعة يهودية كبيرة ونشيطة (تتحدّث المصادر عن اثنين وعشرين ألفًا إلى خمس وأربعين ألفًا من اليهود) كانت تتمتع بامتيازات تقليدية وبازدهار اقتصاديّ نسبيّ. إلى هذه الجماعة اليهودية لجأ المسيحيون الأوائل الذين تشتتوا خارج أورشليم بعد استشهاد استفانوس في أواخر الثلاثينيات من القرن الأول. مع هؤلاء وصل أيضًا رجال من قبرص والقيروان كانوا يبشّرون بإنجيل الربّ يسوع عند يونانيي المدينة. وعلى أساس هذين النموذجين المختلفين للشهادة قامت في أنطاكية جماعة مسيحية واحدة لا تعرف الاختلافات الإثنية أو الإيديولوجية، بل كانت جماعة مؤسَّسة على بشارة الرسل وخصوصًا على

بشارة القديس بولس الذي كان لعمله الفضل في أنّ التلاميذ "دُعِيوا مسيحيين في أنطاكية أولاً" (أع ١١: ٢٦). يخبر كتاب أعمال الرسل بشكل مبرمج كيف أنّ القديس بولس، يرافقه، مرات، برنابا، أو يوحنا مرقس، أو سيلاس، كان يتخّذ من مدينة أنطاكية، العاصمة السياسية الوثنية الأهمّ في الشرق الأوسط، محطةً مركزيةً في رحلاته التبشيرية. كما يخبرنا الكتاب نفسه كيف أنّ الرسول بولس وصل، أخيرًا، إلى روما نفسها، الذي فيها أعطى شهادته الأخيرة المتعلقة برسالة الخلاص، أمام مَن كانوا يمثلون كلية العالم المسكون في الأزمنة القديمة.

كنيسة أنطاكية والعهد الجديد

إنّ العهد الجديد، وهو المجموعة القانونية التأسيسية للمسيحية بكاملها، هو الشهادة المكتوبة الأهمّ عن الإيمان المسيحيّ الأنطاكي. فالتقليد من جهة، والدراسات الكتابية المعاصرة من جهة أخرى، تتّفق في تحديدها المنطقة الواسعة التي كانت تحت تأثير أنطاكية، مكانًا جاء منه، وعمل فيه، معظم مؤلفي هذه الكتابات والذين وجِّهت إليهم. فإنجيل متى، وهو أكثر الأناجيل قراءة عند المسيحيين، كُتِبَ للجماعة المسيحية الأنطاكية حوالي العام ٨٠ م. أمّا إنجيل لوقا وكتاب أعمال الرسل، اللذان ينسبهما التقليد إلى الطبيب الأنطاكي لوقا، فموجهان، بحسب النقد الكتابيّ الحديث، إلى جماعة مسيحية أممية في آسيا الصغرى، ربما كانت جماعة أفسس. وتعكس رسائل القديس بولس الطرسوسيّ، رسول أنطاكية، مشاكل مسيحيي تلك المنطقة وإيمانهم، وهي تقرأ يومياً تقريباً في الخدم الليتورجية في المسيحية جمعاء. ويحمل، أيضًا، إنجيل مرقس ورسائل بطرس تقليدًا أنطاكياً قوياً.

هكذا، نرى أنّ الحديث عن بدايات المسيحية في أنطاكية هو حديث عن مهد المسيحية العالمية، وبشكل خاص، عن نضال مؤمنيها لإيصال رسالة يسوع المسيح إلى كلّ البشر، دون الاكتراث إلى أصله وديانته السابقة. وفي أنطاكية دافع بولس الرسول عن حقّ كلّ إنسان يسمع رسالة المسيح ويقبلها في متابعة مسيرته دون أن يُلزَم بالخضوع لأيّ نير تفرضه شريعة أو أن يرتبط بأي عادات إثنية. ناضل القديس بولس وتلاميذه من أجل المساواة بين كلّ المسيحيين كخدام وأبناء لإله واحد ورب واحد، وكإخوة يتحلّقون حول مائدة واحدة، وينتمون إلى مكان واحد، هو بيت الله الآب الرحوم. "ليس يهودي ولا يوناني، ليس عبد ولا حر، ليس رجل وامرأة، بل كلكم واحد في يسوع المسيح"، هذا ما جهر به بولس علانية.

في إنجيل متى، أي في أنطاكية في الثمانينيات من القرن الأول م.، أصداء لهذا التأكيد لا تزال تُسمع. ولهذا عانت كنيسة أورشليم من استشهاد يعقوب، أخي الرب (٦٠ م.)، وتشتت مؤمنوها في المنطقة. أضف إلى هذا دمار الهيكل على يد الرومان (٧٠ م.)، الأمر الذي جعل المجمع اليهوديّ في الشتات أكثر تشددًا في تحديد دينه حيال حركة مسيحية كانت تزداد اتّساعًا بانضمام أعضاء من الأمم إليها. كان لهذه النجاحات صدى في مدينة أنطاكية ترك بصماته في إنجيل متى حيث نقرأ عن خلافات عنيفة بين التيارات المتهوّدة والتيارات المنفتحة على الأمم. لنذكر، على سبيل المثال، مثل العملة وأجرتهم في مت ٢٠: ١-١٦، أو مثل الابنين في مت ٢١: ٢٨-٣٢، حيث يظهر يسوع رفضه للتمييز: "إني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك. أو ما يحلّ لي أن أفعل ما أريد بما لي؟ أم عينك شريرة لأنّي أنا صالح؟" (مت ٢٠: ١٤-١٥).

الاضطهادات في أنطاكية والقديس أغناطيوس المتوشح بالله

كانت الكنيسة الأنطاكية المعاصرة لمتّى تدرك، دون شكّ، أنّ الإيمان بالمسيح ينبغي أن يوحّد اليهود والأمم في جماعة جديدة لا يمكن أن توصف، بأي شكل من الأشكال، بأنها بدعة انبثقت من اليهودية الرسمية التي كانت روما تحميها. مع ذلك، كان انفصال المسيحيين عن المجمع اليهوديّ، في المنظور الحكومي الروماني، يعني اعتبار المسيحية حركة جديدة ومستقلة عن الديانة اليهودية، التي كانت تتمتع بالتساهل؟! (Tolerance) من جهة الدولة، لكونها ديانة تقليدية ولكونها من ضمن الديانات المشروعة في الإمبراطورية. هذا أحد الأسباب الرئيسية التي جعلت المسيحيين عرضة للاضطهادات منذ نهاية القرن الأوّل.

يجدر القول أنّ الاضطهادات السابقة لسنة ٢٥٠ ليست إلاّ ظواهر منعزلة تنظّمها الدولة على أقليّة كانت تنمو في كلّ أراضي سواحل البحر الأبيض المتوسط. كان الامبراطور داقيوس (٢٤٩-٢٥١) أولّ من اتّخذ إجراءات منظّمة وحاسمة ضدّ مسيحيي الإمبراطورية. فأوجب على كلّ السكان أن يشتركوا في عبادة الآلهة ويحصلوا على "شهادة تقدمة" بعد أن يضحوا للإمبراطور. جرّت هذه التدابير عقوبات شديدة على المسيحيين وأيقظت عند الرأي العام الروماني شعورًا بأنّ أعضاء **البدعة** المسيحية ينقصهم الولاء السياسيّ. في كلّ الأحوال، لم يدم هذا النوع من الاضطهاد إلاّ فترة قصيرة، بلغ فيها أوج قساوته، في الشرق خصوصًا، خلال السنتين الأخيرتين من حكم ديوقليسيانوس (٣٨٤-٣٠٥) وحتى بداية التغيير الكبير الذي حصل في أيام قسطنطين الكبير. في هذا الاضطهاد، وهو الأعنف في التاريخ القديم، تمّ حظر العبادة المسيحية، وعُذّب وأُعدم عدد كبير من المؤمنين، وصودرت كلّ الممتلكات العامة للكنيسة. تلت هذا العذاب، الذي ضرب الديانة المسيحية، فترة هدوء طبعها

مرسوم التسامح الذي أصدره القيصر غاليريوس سنة ٣١١، و اتّفاق ميلانو الشهير (٣١٣) بين القيصر ليكينوس والإمبراطور الروماني الجديد قسطنطين الكبير الذي كان انتهى من إعادة توجيه إمبراطورية متفسخة من الداخل.

رغم الاضطهادات، توسّعت الجماعات المسيحية في كلّ المنطقة الأنطاكية في سوريا وآسيا الصغرى. من المهمّ أن نذكر، مثلاً، العددَ الكبير من الأساقفة المعروفين بسبب علمهم وثقافتهم في منطقة اللاذقية الساحلية، وفي بيروت وصور، خلال النصف الثاني من القرن الثاني. فقد اشتهر أوريجنّس بنشاطه التعليميّ في صور منذ السنة ٢٥١ حتى وفاته. وفي سنة ٣٢٥ جاء إلى نيقية عشرات الأساقفة ممثلين مسيحيي سوريا وفينيقية وآسيا الصغرى وما بين النهرين في المجمع المسكوني الأولّ.

أمّا الاضطهاد الذي ترك أثرًا قويًا في أنطاكية فهو الذي حصل في أيام الإمبراطور تراجانوس (٩٨–١١٧) في بداية القرن الثاني. في هذا الاضطهاد استُشهد القديس أغناطيوس، ثاني أسقف على أنطاكية، في حلبة المدرّج الروماني حوالي العام ١١٥. في طريقه إلى الاستشهاد، بين أنطاكية وروما، والذي دام عشر سنوات تقريباً، كتب القديس أغناطيوس المتوشّح بالله سبع رسائل إلى الجماعات المسيحية في أفسس، ومغنيسية، وترالّس، وروما، وفيلادلفية، وإزمير؛ كما كتب رسالة إلى بوليكاربوس، أسقف هذه المدينة الأخيرة. في هذه الرسائل يفصّل القديس إغناطيوس البنية التنظيمية للجماعات المسيحية في ذلك الوقت. فعنده أنّ أسقفًا واحدًا يدير جماعة واحدة محاطًا بالشيوخ والشمامسة. وهذا هو النموذج الشهير المدعو **بالأسقفية الملكية**، أو ربما الأفضل أن يدعى بنظام **الأسقفية الواحدة**. بهذا تكون أنطاكية أعطت النموذج الانتقاليّ بين فترة العهد الجديد، أي الفترة الرسولية، وبداية الفترة السابقة للمجامع. وكان القديس أغناطيوس أول من استعمل عبارة **الكنيسة الجامعة** للإشارة إلى جميع المؤمنين المسيحيين في المدار الرومانيّ (إزمير ٨: ٢). والقديس إغناطيوس هو أوّل الآباء الذين استشهدوا بإنجيل متى، الأمر الذي أكّد للمتخصصين صحة الأصل الأنطاكيّ لإنجيل متى. نذكر مثلاً استشهاد رسالة إزمير بـ مت ٣: ١٥، ورسالة بوليكاربوس بـ مت ١٠: ١٦ب.

النزاع حول تأريخ عيد الفصح

عرفت المسيحية في القرن الثاني خلافًا داخليًا قويًا بين كنائس أنطاكية وأسقف روما فيكتور الأولّ، بسبب موعد الاحتفال بعيد الفصح، العيد الذي يعبّر عن جوهر الإيمان المسيحيّ. منذ بداية المسيحية، نما في الكنيسة تقليدان متوازيان يختصان بتحديد موعد عيد الفصح، أحدهما شرقي، مشترك مع اليهود، والآخر منفتح على

الأمم. كان التقليد الشرقيّ يعتمد على التقويم القمري وكان يوافق الفصح اليهوديّ مع الفصح المسيحيّ. كان الأسقف مليتوس، أسقف ساردس في آسيا الصغرى، وكاتب العظة حول الفصح، يمثل التقليد القديم القائل بعدم وجوب وقوع عيد الفصح يوم أحد. أمّا التقليد الغربيّ فكان يعتمد على التقويم الشمسي اليولياني، وهو التقويم الرسمي للإمبراطورية، وعلى أساس هذا التقليد كان عيد الفصح يقع دائماً في يوم أحد. يختلف التقويم القمري عن التقويم الشمسي، ليس فقط في عدد الأسابيع، والأشهر، ولكن أيضًا في ما يتعلق بتحديد بداية اليوم ونهايته، الأمر الذي نتج عنه لُبْس شديد التعقيد. وكان ينبغي انتظار مجمع نيقية الذي أمر بأن يقام عيد الفصح المسيحيّ في الأحد الأول التالي للبدر الأوّل بعد الاعتدال الربيعيّ الذي يقع في ٢١ آذار بحسب التقويم اليوليانيّ. غير أنّ الخلاف حول تعييد الفصح عاد للظهور مرّة أخرى عندما طُبّق في الغرب التقويم الغريغوري (القرن السادس عشر)، وظهرت لوائح فصحية جديدة مع مواعيد مختلفة لا تزال سارية المفعول إلى يومنا هذا.

إيمان الأنطاكيين القدماء والفكر المعاصر لهم

عند ثيوفيلوس، الأسقف السادس على أنطاكية (+١٨٥)، مصنّفات مهمةّ، لم يبقَ منها إلاّ رسائل ثلاث إلى أفتوليكوس، تشكّل مجموعة كتابات يتعلّق بعضها ببعض. في هذه الرسائل يعرض ثيوفيلوس، بشكل تفصيليّ، الإيمان المسيحيّ، ويدافع عنه، مقارنًا إياه بالميثولوجيا والفلسفة الوثنيتين. في الرسالة الثالثة يردّ على الاتهامات التي وجّهت ضدّ الأخلاق المسيحية، ويشرح طريقة الحياة اللاأخلاقية عند الوثنيين. يبيّن ثيوفيلوس قِدَم الديانة المسيحية مستعينًا بقِدَم كتاباتها المقدسة: فعنده أنّ موسى عاش قبل حرب طروادة حوالي ألف سنة (٣: ٢١). شدد ثيوفيلوس على أهمية التمييز بين احترام الإمبراطور وعبادة الله: "إني احترم الإمبراطور وأكرّمه وأصلّي لأجله، ولكن لا أعبده بل أعبد الله الذي خلق الإمبراطور" (١: ١١).

ذيذاخية الرسل الاثني عشر هي أيضًا أحد الأعمال الأدبية الأنطاكية من القرن الثاني. عرفها كلّ الكتّاب المسيحيين في التاريخ القديم. تحتوي فصولها الستّة الأولى على تعليمات ذات طابع أخلاقيّ موجّهة إلى المسيحيين الأمميين. تقدّم الذيذاخية هذه التعليمات وفقًا لشكل أدبيّ معروف بشكل الطريقين، وهو قائم على الثنائية بين الخير والشر، ويفترض تأثيرًا ساميًا سابقًا للمسيحية. أمّا الفصول ٧–١٥ فتعكس، من جهتها، الممارسات الليتورجية للجماعات الأنطاكية في العماد والصوم والصلاة والاحتفال بيوم الربّ. وفيها نقرأ أيضًا عن التنظيم الإكليريكيّ ووظائف أعضاء آخرين في الجماعة، كالمعلمين، والأنبياء، والرسل المتنقلين. ذكر الذيذاخية في الشرق كما في الغرب شهادة ثابتة على التأثير التأسيسيّ الذي كان لهذا النظام الليتورجيّ الأنطاكيّ على

الجماعات المسيحية الأخرى على اتساع الإمبراطورية. من الأمثلة الحيّة على مدى تأثير هذا الكتاب حضه المسيحيين على الصوم يومي الأربعاء والجمعة من كلّ أسبوع خلافًا لليهود الذين يصومون يومي الاثنين والخميس (٨: ٢)، ولا يزال هذا التقليد متبعًا إلى اليوم.

قامت تيارات هرطوقية متعدّدة وانتشرت بين الجماعات المسيحية في الشرق وفي أنطاكية منذ بداية القرن الثاني. فامتزجت الفلسفة اليونانية و الغنوصية وديانات الشرق الأسرارية تحت لواء الثقافة الهلينية لتولّد أنظمة فلسفية ودينية تلفيقية مختلفة، شكلّت فيها المسيحية عنصراً جذّابًا. ميناندروس وساتورنيلوس وفالنتينوس من الأسماء الأكثر شهرة في الغنوصية المسيحية. أمّا تتيانوس، الغنوصي والفيلوسف ذو الأصل السوريّ، فصار مسيحيًا على يد يوستينوس الشهيد في روما، في أواسط القرن الثاني. عند عودته إلى سوريا أسّس حركة نسكية قاسية وألّف عمله الأشهر: **الـذياتسارون أو رباعيّ الأناجيل** . تضمّن هذا الكتاب عرضًا متناغمًا للأناجيل الأربعة في نصّ واحد يتبع التسلسل الزمني لإنجيل يوحنا. استعملت الجماعات الناطقة بالسريانية توليف النصوص هذا حتى القرن الخامس. وقد اشتهرت ترجمته إلى العربية على يد الكاهن النسطوريّ ابن الطيّب في القرن الحادي عشر. لم تلق محاولة كتابة عمل عن حياة يسوع التاريخية قبولاً بين الكتابات القانونية في الكنيسة، وبقي عمل تتيانوس سابقة تاريخية ضدّ كلّ تغيير لأيّ من اعترافات الإيمان الأربعة الواردة بشكل روائيّ في الأناجيل بحسب متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا.

من بين المعلِّمين المسيحيين الأكثر شهرة والذين أثير حولهم جدل كبير في أنطاكيا في العهد السابق لقسطنطين، بولس السمساطي، الأسقف الخامس عشر على أنطاكية بين ٢٦٠–٢٦٩. كان موظفًا من درجة عالية في دولة تَدمُر المستقلة، وهذا ما جعله ينال حظوة في عيني الملكة زنوبيا التي شجعت انتشار المسيحية في مملكتها، حيث ظهرت الآريوسية بشدة بتأثير من كتابات السمساطي نفسه. انعقدت في السنوات ٢٦٤ و٢٦٨ و٢٦٩ ثلاثة مجامع أنطاكية للحكم على عقيدة بولس. في المجمع الثالث أدين بولس السمساطي بالهرطقة، كما أدينت عبارة هومووسيوس (homoousios) التي استعملت للمرة الأولى في كتاباته. لهذا السبب كان لأنطاكية مواقف متناقضة من دستور الإيمان في المجمع المسكوني الأول لاحتوائه على هذه العبارة (نيقية ٣٢٥).

نشأة مدرسة أنطاكية اللاهوتية

عندما كان أسقفًا على أنطاكية أسس بولس السمساطيّ مدرسة أنطاكية اللاهوتية بإدارة لوقيانوس الأنطاكيّ، الذي كان كاهنًا وعالمًا وشهيدًا. أدين لوقيانوس مع بولس في المجمع الأنطاكيّ الذي عقد سنة ٢٦٩ بسبب

تعاليمه الخريستولوجية القائلة بالتراتبية. ونال إكليل الشهادة سنة ٣١٢ في نيقوميدية. عرفت مراجعته للترجمة السبعينية بدقتها ووضوح عباراتها، وقد تحولّت بسرعة إلى النصّ المعياريّ في كنائس سوريا، وآسيا الصغرى، والقسطنطينية. نصّه للعهد الجديد قريب جدًا من الـ textus receptus أي النصّ الموجود في غالبية المخطوطات اليونانية القديمة.

عرفت هذه المدرسة التي أسسها الأسقف بولس السمساطي أوج ازدهارها في القرنين الرابع والخامس. فكان من أهمّ مفسريها المعلم ديودوروس الطرسوسيّ (+٣٩٤)، وثيودوروس الموبسوستي (٣٥٠–٤٢٨)، والقديس يوحنا الذهبي الفم (+٤٠٧)، وثيوذوريتوس القورشيّ (+٤٦٦). وضع كلّ من هؤلاء المعلمين أعمالاً تفسيرية مهمّة تتسم بتوجهاتها المختلفة ونوعية محتواها، ولكنهم كانوا يطبقون دائمًا المناهج والمبادئ نفسها التي تميّزت بها مدرسة أنطاكية منذ تأسيسها. خلافًا للمنهج الاستعاريّ الذي اتبعه المفسِّرون في الاسكندرية، حاولت المدرسة الأنطاكية أن تبحث، من خلال النصّ نفسه وخلفيته التاريخية، عن الرسالة التي أراد الكاتب إيصالها من خلاله. تميّزت هذه المدرسة بالطابع العلميّ الصارم والعمل العقليّ الرزين. وكانت معرفة اللغة والمفردات والسياق الذي كتب فيه النصّ من الشروط الأساسية للقيام بالعمل التفسيريّ. فاليوم أيضًا يعتبر التفسير الحديث هذه الأمور من المقومات الأساسية للتفسير ويحاول تطبيقها. لهذا السبب، ما من شكّ في أنّ التركيز على التفسير الأنطاكيّ لعب دورًا أساسيًا في تطوّر العلوم الكتابية وفي معرفة إيماننا وتعميقه.

الفن الكنسي الأنطاكي القديم

لا يعرف علم الآثار إلاّ شواهد قليلة على الفنّ المسيحيّ القديم عمومًا، والأنطاكيّ خصوصًا. والشاهد الأكثر وضوحًا على الفنّ المسيحيّ في الشرق السوري، قبل قسطنطين، نجده في البيت الكنسي (domus ecclesiae)، في دورا أوروبوس، الواقعة على ساحل الفرات القديم (قرب الصالحية، جنوبي شرقي سوريا)، والتي تعود إلى القرن الثالث. بسبب وجودها على الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية عبّرت الجماعة المسيحية في دورا أوروبوس عن نفسها من خلال الفنّ المرسوم بحرية أكثر من الجماعات المسيحية التي تمركزت حول البحر المتوسّط، والتي أبدت تحفظًا قويًا إزاء التعبير عن الإيمان من خلال الصور خوفًا من السقوط في الصنمية. كانت البيوت الكنسية أماكن الاجتماع النموذجية للمسيحيين الأوائل. ففيها كانوا يحتفلون بالمعمودية والافخارستية، ويقيمون اجتماعاتهم العامة. كما كانت هذه البيوت تستعمل كمأوى لبعض أعضاء الجماعة وللمسافرين. نجد في دورا أوروبوس قاعة كبيرة، وبيتًا للمعمودية، وباحة، وطابقًا ثانيًا للاستعمال اليوميّ. نجد

في بيت المعمودية رسومًا جدارية شديدة التعبير. فوق جرن المعمودية، مثلاً، رسم يمثّل الراعي الصالح حاملاً الخروف الضال على كتفيه، ومهتمًا بقطيعه. عند قدميه، تحت الأرض التي يدوسها الراعي، نرى، بحجم أصغر، جسدي آدم وحواء العاريين وهما يخجلان من خطيئتهما. ما من شكّ في أنّ توليف الصور هذا يرمز إلى الخلاص المعطى بالإيمان بيسوع المسيح، الذي يفتدي الإنسان من عالم الخطيئة الأرضي. أمّا البيت الكنسي الآخر المهمّ فنجده في كيرك بيزا (جنوبي شرقي تركيا) على بعد عشرة كيلومترات من أنطاكية تقريبًا. يتجه المحور المركزيّ للمبنى من الغرب إلى الشرق. فيه منبر داخل القاعة الرئيسية لحفظ بقايا الشهداء. وفي بداية العهد القسطنطينيّ شيدت في صور (لبنان) الكنيسة الملكية الثانية عام ٣١٦–٣١٧. في تصميم هذه الكنيسة احترام للعلاقة الوثيقة بين المساحة والحركة الطقسية الليتورجية. تشكلّ هذه المرحلة الحلقة الانتقالية من مراكز العبادة الأولى إلى المعابد المسيحية الكبيرة حيث فرض الفنّ الرومانيّ المرتبط بأماكن العبادة الملكية نفسه مكان بساطة البيوت الرومانية الشرقية ووضاعتها.

نحو عصر المجامع المسكونية

مع اتّفاق ميلانو (٣١٣) الآنف ذكره بدأ عصر جديد للمسيحية، صارت الكنيسة المتمأسسة تضطلع فيه، شيئًا فشيئًا، بدور حاسم في إدارة هذه الإمبراطورية، لدرجة أنّ عقيدتها وإيمانها كانا قادرين على أن يفقدا الحكم استقراره أحيانًا، ويدعماه أحيانًا أخرى. وصارت المسيحية ديانة بالمعنى الرومانيّ للكلمة، أي مؤسَّسة منظَّمة بطقوس وقوانين تتصل بحياة المسيحيين اليومية. حيال هذا الوضع فقدت الكنيسة الرسمية جزءًا من جوهرها الأخرويّ الكتابيّ لمصلحة حياة اجتماعية يعمها السلام والازدهار. إنها فترة الكنيسة في السلطة. وصار فنّ الأيقونة يعكس هذه الوضع، فراح يمزج بين صور القيصر وصور يسوع الغالب وخالق العالم. وفي هذه الإمبراطورية التي بدأت تنقسم إلى شرق وغرب كان من شأن المجامع المسكونية أن تؤكد وحدة الكنيسة في هذين الجزأين من العالم، وأن تؤكد أيضًا وحدة الإمبراطورية التي بدأت تنشطر. هذا أحد الأسباب السياسية الأهمّ التي جعلت قسطنطين الكبير يدعو جميع أساقفة المدار الرومانيّ للاجتماع في نيقية في سنة ٣٢٥.

إنها بداية عهد جديد، عهد الكنيسة المجمعيّ والرسميّ. في هذا العهد لم يعد لأنطاكية المكانة نفسها بالنسبة لكثير من الجماعات في آسيا الصغرى، التي بدأت تتجه نحو القسطنطينية، العاصمة الجديدة للإمبراطورية، والتي تأسست سنة ٣٣٠ لتكون المركز الكنسيّ والسياسيّ للأرثوذكسية في القرون الوسطى.